الوعي الحداثي في نقد "عبد الملك مرتاض" بين الأصالة و المنجز الغربي

The modern awareness in Abdul-Malik Murtadh criticism between the Arab rooting and the western influencer

ط د: شيماء الأطرش
الدكتور: أحمد جاب الله

قسم اللغة والأدب العربي - جامعة الحاج لخضر-باتنة 1 (الجزائر)
مخبر الشعرية ، جامعة باتنة1.

lchaima1951@gmail.com

تاريخ الإيداع: 2020/10/29 تاريخ القبول: 2021/05/09 تاريخ النشر: 2021/09/15

ملخص:

يعتبر "عبد الملك مرتاض" من النقاد البارزين في طرح قضية الحداثة وعلاقتها بالتراث، أي الدعوة لمسايرة الراهن دون الابتعاد عن الماضي بما يزخر به من ثراء فكري، وحمولة معرفية. وذلك من خلال التنظير لأهمية حضور التراث العربي في المشهد النقدي العربي.

كما أكد على أهمية الانفتاح على الحداثة الغربية والتعامل معها بنضج ووعي، مع ضرورة الحفاظ على الانتماء العربي التراثي أي–التفاعل الإيجابي بين المنجزين-. وقد مكنته هذه الرؤية من ولوج الساحة النقدية العربية، وترك بصمته و هويته النقدية فيها.

الكلمات المفتاحية: التراث البلاغي، الحداثة الغربية، الخطاب النقدي، الهوية العربية، المثاقفة، الوعي النقدي.

Abstract:

Abdul-Malik Murtadh is considered as one of the prominent critics in raising the issue of modernity and its relationship to heritage, which means the call to pursue the present without neglecting the past with its intellectual richness and knowledge load. This is through theorizing regarding the significance of the Arab heritage in the Arab critical scene. In addition, he emphasized the importance of being open to the western modernity while being mature and aware and preserving the Arab heritage belonging, that is, the positive interaction among the achievers. This allowed him to reach the Arab critical arena and to draw his own critical imprint and identity.

key words: Arab Identity, Critical Awareness, Critical Discourse, Literacy, Rhetorical Heritage, Western modernity.

تعد الحداثة قضية مهمة في الساحة المعرفية، لما تحمله من تطور مستمر ومتباين في المفهوم السائد، حيث شهدت جدلا واسعا في العالم الغربي ليمتد صداه إلى العالم العربي. وكان " عبد الملك مرتاض " من النقاد العرب الذين اهتموا بهذه القضية، حيث أشار في كثير من المواقف إلى جدلية العلاقة بين "التراث والحداثة" في الفكر النقدي العربي، وأهميتها في صنع نقد عربيّ المفهوم والإجراء. وعليه نتساءل عن: مفهوم الحداثة في النقد العربي ، وماهية المصطلح عند "عبد الملك مرتاض"، و موقفه- عبد المالك مرتاض- من الحداثة؟ ومكانة التراث عنده؟

أولا- الحركة النقدية الحديثة عند العرب بين الجمود والانفتاح:

إن متصفح تاريخ النقد العربي، يكشف اللبس والغموض ومدى تدبدب الحركة النقدية وتأخرها عن الظهور في الساحة المعرفية العربية، وذلك بسبب ارتكازها – أثناء ظهورها-على المعايير البلاغية القديمة، بما تحمله من مفاهيم ومسلمات نقدية، حيث لم يجد الناقد العربي ضالته، إلا في أواخر القرن العشرين، ويرجع ذلك إلى الظروف السياسية والاستعمارية التي عرفتها الحركة النقدية في فتراتها المختلفة، علما أن "الثقافة الاستعمارية بطبيعتها لا تسمح بنشر ثقافة أصيلة فضلا عن ترسيخها، يمكن القول بعدئذ أن عدم ظهور نقد أدبي في هذه المرحلة يعد نسبيا طبيعيا "[1].

وقد بدأت أصوات النقاد والباحثين تتعالى بتبنيها المناهج الغربية، إذ قامت- الأصوات- بممارستها تنظيرا و تطبيقا، مثاقفة و ترجمة، سعيا منها إلى إخراج الساحة المعرفية العربية من الركود والجمود الذي عرفته في تلك المرحلة، ليحاول بعدها الناقد العربي الخروج من الظلمات والانفتاح

أكثر على مفهوم النهضة، بكل معاييرها المعرفية مستوعبة" ما أمكنها من ثقافة الاخر ومعطياته الفكرية،أمام حالة الانبهار بمنجزه الثقافي و الحضاري ،على الرغم من كونه مصدر ما أصاب الأمة من كوارث و أزمات."[2]

ولكن رغم ذلك لا ننفي إسهام الثقافة الغربية في انفتاح العقل العربي، وفي تطور الحركة النقدية، إذ " راحت تزداد وضوحا بفضل التأثيرات المباشرة للانفجار النقدي والنظري في أوروبا والعالم منذ الستينات، والذي بدأ يجد صداه في الحياة النقدية العربية منذ منتصف السبعينات، وتبلور بشكل أفضل في الثمانينات عن طريق تأصيل بعض المناهج النقدية الحديثة " [3]. إلا أنّ انفتاح العقل العربي على المنجز الغربي وما خلّفه من تطور ووعي في الممارسة النقدية، لم يمكّن العقل العربي – إلا ناذرا – من تجاوز الحداثة الغربية، فقد جعل معارفه النقدية، تنمو في رحمها، وتزدهر بعيدا عن جذوره وهويته.

و يبقى السؤال المطروح،كيف للفكر العربي أن يثبت هويته وذاته في الساحة المعرفية النقدية، وهو منبهر مرتمي في أحضان المعارف النقدية الغربية ؟

يرى " عبد الملك مرتاض " أن " أخطر ما فعلناه أننا استعرنا أو نقلنا مذاهب نقدية غربية هي بالدرجة الأولى إفراز أمزجة ثقافية وفلسفية لها خصوصيتها، التي لا تتفق مع أمزجة الثقافة العربية، وهكذا أضاف الحداثيون العرب إلى سوء الفهم والتشويه غربة المفاهيم المستوردة ومصطلحها النقدي "[4]، خاصة أن موجة الحداثة الغربية قد أحدثت إشكالا كبيرا في الساحة النقدية العربية، فهناك من "بالغ في الاستسلام السلبي في تلقي وإعادة إنتاج كل ما يصدره لنا المركز الميتوبولي الغربي معرضا وعيه إلى مخاطرة المثاقفة السلبية، ومتخليا عن هويته وخصوصيته الثقافية الوطنية والقومية، وهناك من حاول أن يبلور مشروعا نقديا حداثيا، يزاوج بين الكشوفات والمعطيات النقدية الحداثية في ميدان النظرية الأدبية والنقدية، وبشكل خاص في مجال الدراسات الألسنية والسيميولوجية، وبين حاجتنا الثقافية الخاصة. " [5]

ولتجاوز التبعية العربية للإنتاج الغربي، ارتفعت أصوات كثيرة من النقاد والباحثين، تنادي بضرورة صنع هوية نقدية عربية خالصة، تساير التطور وتحافظ على جذورها العربية (البلاغة العربية)، وذلك من خلال " تكريس خطابات نقدية تخصها، لإيمانها أن النقد عمل إبداعي يوازي الشعر، ويوازي السرد أيضا. أصوات لها لغتها القادمة منها، ولها معجم لغوي خاص بها، وهو بطبيعته معجم عملي بلا جدران ولا سقوف، مفتوح على الجهات كلها، يستنشق الهواء الطبيعي القادم من كل الجهات، وله القدرة على رد الهواء الفاسد وقدرة مشابهة على استنشاق الهواء

النظيف ومزجه فورا بإمكانياته، وقدراته وطاقاته، معجم أصيل، لكنه متغير باستمرار، قابل لكل ما هو مفيد، وخصب، وكل ما هو قادر على تخصيب هذا المعجم، وتطويره والإضافة إليه، فلا مشكلة لديه مع الآخر مهما كان. "[6] أي أن النظرية النقدية زئبقية البناء، تتغير وتتشكل باستمرار مع اختلاف الزمان والمكان والباحث الدارس لها، تارة تتقيد بإنتاجها العربي القديم وما تحمله من معارف نقدية، وتارة أخرى تنفتح على العالم الغربي مستفيدة من معارفه الحديثة والمتطورة دون التسليم لها، أي ضرورة الانفتاح الواعي للباحث، بتوظيف وانتقاء ما يخدم النص الإبداعي وما يثري عمليته النقدية، دون التخلي عن أصالته وهويته.

و لهذا نجد اختلافا وجدلا واسعين حول مفهوم الحداثة، من باحث إلى آخر، كل حسب مرجعياته وتوجهاته وثقافته وعقيدته.

ثانيا-الحداثة في النقد العربي المعاصر: "رؤى و مواقف" :

لقد أثارت قضية الحداثة اهتمام العديد من النقاد والمفكرين والمبدعين، ومن تم فقد تعددت المصطلحات والمفاهيم التي تساير كل مجال واختصاص كالحداثة في الفكر، الحداثة في الأدب، الحداثة في النقد. ولهذا اعتبرت "الحداثة "إشكالية معقدة وأكثر التباسا وغموضا، ويرجع ذلك إلى زئبقية المفهوم، والدلالة وتنوعها من باحث إلى آخر، لهذا ارتأينا تقصي مفهوم الحداثة، حتى نكشف بعض الأسس المفاهيمية لهذا المصطلح ونجلي الغموض الذي يكتنفه، قبل معالجة مفهومه عند " عبد الملك مرتاض ".

1- قراءة في المصطلح :

أ- **الحداثة /لغة:** ورد في معجم " لسان العرب " أن الحداثة " نقيض القدم والحدوث نقيض القدمة، حدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة وأحداثه، فهو محدث وحديث، وكذلك استحدثه والحدوث كون الشيء لم يحدث، استحدثت الخبر أي وجدت خبرا جديدا"[7]. أما في معجم " العين " فقد ورد بمفهوم " الجديد من الأشياء .. والحدث الابداء "[8]. وعدّت الحداثة في معجم "اللغة العربية المعاصرة " مصطلحا " أطلق على مجموعة من الحركات الفكرية الداعية للتجديد والثائرة على القديم في الآداب الفرنسية، وكان لها صداها في الأدب العربي الحديث خاصة، بعد الحرب العالمية الثانية" [9]، ويميل كثير من المبدعين إلى الحداثة باسم التجديد والصدق الفني.

ب-اصطلاحا: تمثل الحداثة تلك اللحظة " التي تتمرد فيها الأنا الفاعلة للوعي على طرائقها المعتادة مع الإدراك، سواء أكان إدراك نفسها من حيث هي حضور متعين فاعل في الوجود، أو إدراك علاقتها بمواقعها، من حيث هي حضور مستقل في الوجود. " [10]

ويعرفها "ادوارد الخراط" قائلا هي " تساؤل مستمر الوهج عن الواقع ودحض لهذا الواقع ."[11]

وبهذا فالحداثة هي البحث عن واقع جديد، يقوم على التطور والعصرنة في مختلف المجالات بما في ذلك الواقع الفكري والمعرفي.

وقد عرفت قضية " **جدلية التراث والحداثة بين الانفصال والاتصال"**جدلا واسعا في الساحة المعرفية، إذ نجد الحداثة عند "محمد الجابري" " لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى ما نسميه المعاصرة ." [12]

ويربط" الجابري" الحداثة بالجذور القديمة، من خلال التعامل معها بطرق جديدة تواكب ركب التطور، فالحداثة عنده لا تعني الانعزال عن الأصول المعرفية، فإذ كان لزاما على المجتمع العربي أن يلتفت لصدى صوت الحداثة الغربية، فهذا لا يعني التخلي عن المعارف القديمة وبتر الصلة بالتراث، لأن " دواعي التغيير والتطور، وضرورة مواكبة العصر وفرض المعرفة تستوجب علينا أن نحاور الحداثة، فإن الحداثي الجاد يسعى إلى تأسيس حساسية أدبية جديدة وفق تقنيات فنية لا تقطع صلته بالتراث. "[13]

وعليه فإن الحداثة لا تعني الانسلاخ عن جذورنا المعرفية، لأن المعرفة القديمة باختلاف مجالاتها، تعتبر الرحم الذي تغدينا منه، لإنتاج معرفة حديثة، فهي نقطة انطلاق، وقاعدة أساسية تساعدنا في تأسيس فكر جديد، يساير ركب التطور المعرفي .

فلتّراث البلاغي " أثر فاعل في مكونات وعينا الراهن، وأثر قد لا يبدو في الوهلة الأولى بيّنا واضحا، ولكنه يعمل فينا وفي خفاء ويؤثر في تصوراتنا شئنا أم أبينا، لذلك علينا أن نتحرك دائما حركة جدلية تأويلية بين وعينا المعاصر وبين أصول هذا الوعي في تراثنا " [14]، أي أنه ثيمة معرفية ثقافية، تخدم حاضرنا ومستقبلنا وهذا ما أكده أدونيس قائلا " ليس النتاج كله الذي أنتج في الماضي، وإنما هو الطاقة الإبداعية التي تجسدت في منجزات لا تستنفذ بل تظل فعالة، متوهجة و جزءا من حركية التاريخ ومن هنا ليس التراث كتلة موجودة في فضاء اسمه الماضي وعلينا العودة إليه و الارتباط به " [15] فهو نتاج دائم الوجود، و فعّال في كل مرحلة من مراحل المعرفة .

ويضيف قائلا " ليس امرؤ القيس، وأبو نواس، والنفري، وأبو تمام، والمتنبي، والمعري، ومحي الدين بن عربي، تمثيلا حصرا تراثا أو ماضيا إلا بمعنى واحد هو أنهم ماتوا بأشخاصهم، أما نتاجهم وما يكتنز من حدس و استبصار فداخل في حركة وعينا وشعورنا وتطلعاتنا، إنه بؤرة حضورنا الإبداعي ". [16] فالنتاج المعرفي كائن حي، يولد ويعيش في الذاكرة الجمعية حتى وإن مات صاحبها فهو حاضر في زماننا بأفكاره وإبداعاته، بل يرافقنا في بناء مستقبلنا، في إطار علاقة دائمة التفاعل والتجديد.

وهناك حلقة مفقودة في هذه القضية " **قضية التراث والحداثة** " يجب التمعن فيها بحيطة وحذر شديدين للوصول إلى نتائج علمية، تستحق الطرح، خاصة أن التراث وسيلة معرفية ذات قيمة تؤسس وتضيف للساحة المعرفية رصيدا فكريا وأدبيا ونقديا ذا ملمح متميز، فمن خلال الحوار بين القديم والحديث تنشأ هوية فكرية عربية متطورة ومحافظة على كيانها العربي في آن واحد، مثلما كان " شأن أسلافنا مع حضارات عصرهم والحضارات التي سبقتهم، فاستطاعوا من خلال هذا الحوار أن يصوغوا لحضارتهم و ثقافتهم وأن يضيفوا لمجمل الحضارة الإنسانية، زادا جديدا وطاقة فريدة. "[17] فمن العبث رفض التراث وإهمال وجوده في الساحة المعرفية، فهو جزء لا يتجزأ من هذا العالم الابستمولوجي فهو "ما يزال يمتد فينا وما نزال نحيا بواسطته شئنا أم أبينا، وعينا ذلك أم لم نعه، يحضر بأشكال متعددة في ذهنيتنا ومخيلتنا وذاكرتنا، ويتجلى بصور مختلفة في تصرفاتنا وتعبيرنا وطرائق تفكيرنا ومهما حاولنا القطيعة معه أو إعلان موته نظريا أو شعوريا تظل خطاطاته وأنساقه وأنماطه العليا مترسخة في الوجدان " [18] أي على الباحث العربي توطيد علاقته مع هذا العلم الذي سيظل عنصرا بنائيا أساسيا في رسم خصوصيتنا وتمييز هويتنا.

في حين أجمع بعض الباحثين والدارسين على أن الحداثة هي ثورة وتمرد على كل الثوابت السائدة سلفا، في كل المجالات بما في ذلك المجال الأدبي والنقدي. فالحداثة عندهم تعني " الثورة على كل ما هو قديم، وتغيير مسار كل النظم التقليدية، فلكي تكون حداثيا، عليك أن تصنع ما لم يأت به غيرك، أو أن تغيّر ما كان سائدا، فتغيرت المشاعر والأحاسيس وأصبحت أكثر غموضا، إذ أصبح المعتاد لا يحقق الرضا عند الإنسان، فامتنع الشعر عن أداء وظيفته المعتادة، والتي تمثلت في ترجمة هذه الأحاسيس من خلال ألفاظ أو لغة كانت بالأمس كافية، لتعيد توازن الإنسان وتصرف مكبوتاته وتسمح بعودته إلى معترك الحياة." [19] و يمثل التراث عند هؤلاء حدثا تاريخيا انقضى وانتهى، وإحياؤه يومئ إلى مدلولات السلبية والقيد الفكري وعدم تقبل ما توصل إليه العالم الحداثي، خاصة أن الحداثة في كل مجالاتها تعني " الاتساق مع العصر والضرورة والحاجة وهي حركة تطور وتقدم مستمرين ... وهي ذلك النمط الحضاري الخاص الذي يتعارض مع النمط

السابق عليه "[20] أي قطع الصلة بالتراث بكل ما يزخر به من حمولة ثقافية ومعرفية وحضارية، والتقوقع في حلقة الفكر الحداثي، الذي يحمل في طياته قيمة فكرية معرفية توحي بالحرية والتطور وكذا العصرنة. إن هذه الرؤية عززتها أفكار تعتبر الفكر الغربي " مرآة تساعدنا على رؤية أنفسنا في السلّم الحضاري، وتحدد لنا على أية درجة نقف وكيف سنتوجه و أية أدوات نستعمل لاستكمال مشروع المعاصرة"[21] ، وهناك من عدّ التراث هاجسا أثقل كاهل الباحث العربي، إذ يقال في ذلك " لماذا يلح علينا هاجس " التراث " هذا الإلحاح المؤرق والذي يكاد يجعلنا أمة فريدة في تعلقها بحبال الماضي كلما حز بها أمر من الأمور، أو مرت بأزمة من الأزمات وما أكثرها "[22]

ثالثا-ماهية مصطلح الحداثة عند " عبد الملك مرتاض ":

أرجع " عبد الملك مرتاض" " الأصل في الحداثة إلى مصدر "حَدُث" في المعاجم العربية بالمعنى النقيض لـ"قَدُم"، وقد استحدث هذا المصطلح ليقابل الاستعمال الغربي (modernite) طورا و(modernisme) طورا آخر. "[23].

ويعتبر عبد الملك مرتاض الحداثة " مفهوما فلسفيا حضاريا، فكريا جماليا، إيديولوجيا معا، فكأن الحداثة مفهوم يمثل خارج إطار الزمنية بمعناها الضيق، وقل إن مفهوم الحداثة يمثل إطار الزمن(اذ سلمنا بتسليط هذا الزمن على مصاحبة وجود الأحياء والأشياء) و لكن دون أن يكون هذا الزمن بالضرورة مقتصرا على الزمن الراهن ، و العهد الحاضر. " [24]

ويذهب إلى أن معالجة هذا المصطلح كمفهوم وبلورته في الساحة النقدية العربية لم يتم " إلا في أوائل القرن الثالث للهجرة، حين سلك أبو تمام مسلكا في نسج الشعر لم يسبق إليه، فاعتاص شعره عن إفهام الناس حتى قيل له، لمَ لا يقول ما يفهم ؟ فأجابهم الطائي على البداهة أو لم تفهم ما يقال ؟ " [25]

ويفرّق " عبد الملك مرتاض" بين المدرسة التقليدية والحداثية حيث يرى أنّ التقليدية " تميل إلى البساطة واليسر والوضوح ومراعاة المنطق في معالجة الأفكار. " [26]في حين تجنح المدرسة الحداثية إلى " التعقيد والتعمية والإبهام والعبث ومحاولة التعامل مع الخيال بسلوك جديد ...، و خصوصا لدى التصوير الفني (...) و قد ينصرف معنى العبث، إلى سير العمل وتفجير قواها الباطنية، في محاولة لشحنها بالدلالات التي لم تعد فيها من قبل، و نسجها نسجا جديدا قد يخرج عن مألوف الأسلوب الشائع (الانزياح) ."[27].

وتتجلى مظاهر ذلك العبث أيضا في الانتهاكات اللغوية -أو الشرخ اللغوي- ما يؤدي بها إلى اكتساب دلالات جديدة غير مألوفة ، فتدخل في حيز الغريب. وقد عبّر عبد المالك مرتاض عن ذلك بقوله: " كما ينصرف إلى إيذاء اللغة بالخروج عن المألوف في صيغتها التقليدية بالتقطيع الأسلوبي، و بالتوليد اللغوي و بالانزياح الدلالي (...) والتمرد على القيم المألوفة بين الناس و محاولة إنشاء عالم جديد. "[28]

ليظهر النقد الحداثي، مواكبا موازيا للتطورات التي شهدها النص الإبداعي الحديث الذي أصبح يبحث هو الآخر، عن قراءة جديدة تتماشى مع طبيعة النسيج اللغوي الجديد والقدرة على سبر أغواره ومنه الوصول إلى دلالاته، "فلقد أصبحت القراءة الأدبية في الإجراءات الحداثية تعني إنتاجا من حول النص، وسوق لغة من حول لغة، دون إصدار الأحكام حتى تظل القراءة قراءة النص المطروح للتحليل مفتوحة إلى يوم القيامة ."[29]

رابعا-مكانة التراث في نقد " عبد الملك مرتاض:

إن محاولة الكشف عن موقف " عبد الملك مرتاض " من الحداثة، يفتح بابا واسعا لطرح قضايا أخرى تتداخل معها، كمكانة التراث عنده وعلاقته بالحداثة، وموقفه من النقد الحداثي.

لقد قدم الناقد موقفه من الحداثة بعد تشبعه بالمنبع التراثي، خاصة البلاغة العربية عند كل من: "ابن قتية"، "الآمدي "، ابن رشيق ... و غيرهم، حيث يشيد بجهود النقاد القدامى ويثمنها في قوله " إن الأدب العربي، أدب كبير وقد قيض له كثير من المفكرين والمنظرين الحقيقيين من أمثال قدامى ابن جعفر، وابن سلام الجمحي، ابن عثمان، ابن هلال، ابن رشيق، حازم قرطاجني، ابن خلدون .فكيف يجوز تجاهل أمثال هؤلاء ونبذهم لدى تناول النص الأدبي، بدون دراسة فكرية مثيرة ."[30] فلقد أبدى استغرابه من تجاهل منجزات النقد العربي القديم والانبهار بما قدمه الدرس الغربي من مفاهيم نقدية، وهي مسلمات كان للعرب فضل السبق في طرحها قائلا :" إنّا نعتقد أنّ كثيرا من النظريات النقدية الحديثة نلفي لها جذورا وأصولا أو على الأقل إشارات وإرهاصات في الفكر النقدي القديم، و لكن لا حَقَّ لأحد أن يقزّم هذا الفكر النقدي و يستهزئ به استهزاء. "[31]

"فعبد الملك مرتاض " كثيرا ما كان يدعو إلى مراجعة التراث والاستفادة منه وعدم التقليل من شأنه، إذ يقول في ذلك " إنه آن لنا أن نراجع مناهجنا كما نراجع أنفسنا من أجل تطعيم رؤيتنا إلى النص الأدبي، كما نعامله معاملة حديثة، ولكن دون أن نفصمه عن الذوق العربي ." [32] فكما لا يمكننا فصل الجذور عن الفروع، لا يمكن فصل حاضرنا عن ماضينا، لأن المعرفة بدورها تنبني على تراكمات معرفية متسلسلة؛ تأتي معرفة لتشرح أخرى وتفتح آفاقها، وتمدها بروافد جديدة

دون إقصاء لها. و يتحقق ذلك من خلال " إعادة اكتشاف بعض جوانب التراث في ضوء المفاهيم الغربية الحديثة (...) لأن الأخذ بالمناهج الحديثة وآليات التحليل المستحدثة في مثل هذا المقام، يسهم في إثراء التراث وإعادة قراءته، وفقا لمعطيات الفكر الحديث، و تبعا للتطور الذي مس جميع مناحي الحياة، وفي هذا وصل للماضي بالحاضر، وفق أسس سليمة واستراتيجية مضبوطة تجمع بين الأصالة المتجذرة و التجديد دوما. "[33]

من هنا يتبين لنا أن "عبد المالك مرتاض"، يحاول تحديث الخطاب النقدي العربي، دون فصله عن التراث ودون أن يكون غير مطلع على ما جاءت به الحداثة الغربية، منطلقا في ذلك من فكرة أن " الحداثة وحدها لا تنفع، كما أن التراث وحده لا ينفع، إذن فلا هذا ولا ذاك ينفع وحده، فلا الانفصال إلى درجة الاغتراب والاستلاب، ولا الاتصال إلى حد الجمود والذوبان في زمن غير زماننا، ونتيجة ذلك فإننا اثنان، صنف مقلد تقليد أعمى، وصنف إتباعي مقلد للأجداد تقليد أعمى، واضح أن الشر كل الشر في الحالتين. " [34]

فهو بذلك لا يدعو إلى الجمود أو الذوبان فيما أتى به الغربيون، بل يدعو إلى الانطلاق من التراث، من خلال ما قدمه أسلافنا من رؤى نقدية ثرية، ثم الانفتاح على المنجز الغربي، بما قدمه من درس نقدي حداثي، و دائما تكون القراءة وفق ما يحمله النص العربي من خصوصية، أي علينا مراعاة هوية وأعراف النص العربي.

يبحث "عبد الملك مرتاض" عن قراءة جديدة تقوم على "فعل مستمر لا يتوقف، يبدأ من الحاضر والراهن وينطلق إلى الماضي والتراث، ثم يرتد إلى الحاضر مرة أخرى في حركة لا تهدأ أو لا يقر لها قرار " [35] . أي بعيدا عن كل تقليد أو انسلاخ عن الواقع العربي، بل التفاعل بين مفهومي التراث العربي والحداثة الغربية، حتى لا ينسلخ من ثوبه العربي وأعرافه من جهة، و ليكون على درب التطور من جهة أخرى ، فهو يسعى الى تعزيز الخطاب النقدي العربي بمفهوم الهوية القومية المتمثلة في البلاغة العربية داعما ذلك الفكر التراثي بأبعاد ثقافية غربية متطورة ليتحقق التميز بفعل التحديث الواعي.

وعليه فإن الجمع بين قراءة واعية للتراث والاطلاع على منجزات الآخر بما يخدمنا دون تزمت أو انغلاق، هو ما نسعى إلى التأسيس له. وبذلك فإنّ " الانبهار بمنجزات العقل الغربي في حد ذاته ليس خطيئة لا تغتفر، و لكنه يصبح كذلك حينما يقرن بالتنكر للتراث الثقافي العربي، أو المناداة بضرورة حدوث قطيعة معرفية كاملة معه، لتحقيق التحديث والحداثة " [36]. وفي هذا المقام يقول: " ما لا ينبغي أن تختلف المناهج التقليدية بقصورها وانطباعيتها وفجاجتها وأفقيتها – لا نستطيع

أبدا وما ينبغي لها – أن ترتقي إلى مستوى النص الأدبي من أمره المعقد المعتاد شيئا ذا بال، لنكن ما نشاء، ومن نشاء في منهجنا، ولكن لا نكون فقط تقليدين، ذلك لو أنّا تسامحنا مع أنفسنا وسقطنا في أوحال التقليدية الفجة نعب منها ونكره، لن نصبح قادرين على بلوغ بعض ما نريد من أمر النص الأدبي، الذي نعرض له بالتشريح " [37]

فعلى العقل العربي أن يرسم لنفسه توجها نقديا خاصا به و لمَ لا نظرية نقدية عربية بدءا من قراءتنا الواعية للتراث، والاستفادة منه، خاصة أنّ " الفكر النقدي العربي القديم حافل بالنظريات والإجراءات التطبيقية، ومن العقوق أن نضرب صفحا عن الكشف عمّا قد يكون في أصول لنظريات نقدية غربية، تبدو لنا الآن في ثوب مبهرج بالحداثة، فننبهر أمامها وهي في حقيقتها لا تعد أصولا في تراثنا النقدي، مع اختلاف المصطلح والمنهج والإجراء بطبيعة الحال. "[38]

أي أن الناقد يثمن جهود النقاد العرب القدامى، ويدعو إلى عدم الإعراض عن المنجز الغربي فقد يكون جديدا فعلا ولا يمت بصلة لأصول الفكر النقدي العربي القديم. بل كثيرا ما نجده يبحث عن نقاط تقاطع بين المنجز النقدي البلاغي، والمنجز الحداثي الغربي، ويؤكد في ذلك قوله " لا ينبغي أن نعق تراثنا النقدي الكبير بالمسارعة إلى إنكار بعض الأصول التي يمكن أن تكون جذور النقدية الحديثة. " [39] فالتراث عنده " يمثل جذورنا الفكرية، والحضارية، ويمتد إلى جملة من القيم والثقافات والآداب. " [40]

ويذهب "عبد الملك مرتاض" إلى أن الاعتماد على التراث وحده غير كفيل بتحقيق نهضة علمية، كما أن التمسك بجلباب المناهج الغربية لا يمكّننا من تحقيق طفرة نوعية في جميع المجالات. و يوضح هذه الفكرة في قوله: " فلا التراث وحده صالح، لأن يحل لنا كل مشاكلنا التكنولوجية والاجتماعية والحضارية، ولا الحداثة وحدها قادرة على أن تموقعنا في موقعنا الصحيح من حيث نحن أمة عربية إسلامية نمتلك في أصلنا معرفة وحضارة وقيما عظيمة، أفاد منها الناس جميعا في العهود القديمة، ولا نود أن ننسلخ عن كل تلك القيم المعرفية الجميلة، لمجرد أنها تنتمي إلى عصور أجدادنا، فان منها ما يزال صالحا، لأن نستند إليه ولا نتخلى عنه " [41]

ويدافع "عبد الملك مرتاض" عن منجزات الحضارة العربية الإسلامية باعتبارها رافدا مهما في تكوين الثقافة الإنسانية بصفة عامة، وليس ذلك غريبا على حضارة عرفت ثراء وتنوعا في جميع المجالات. ويتضح لنا ذلك الاعتزاز فيما ذهب إليه الناقد بأن "التراث العربي الإسلامي من حيث هو نتاج حضاري، هو بحر لجي زاخر بكنوز المعرفة، وخزان للثقافة والإنسانية الرفيعة السخية، فقد عرف الجدل والمنطق، وعرف الفلسفة والتيارات المذهبية والفكرية، قد عرف الاتفاق في الرأي،

كما تعامل مع الاختلاف فيه، برقي فكري مدهش، كما عرف إجراءات التنظير في أسمى مراتبها وأرقى أدواتها " [42]"

إنّ المواقف السابقة التي قدّمها "عبد الملك مرتاض" تجعل القارئ يبحث في تكوين هذا الناقد ومرجعيته الفكرية والثقافية. فعلى الرغم من انفتاحه على العالم الغربي وتمدرسه على يد أساتذة غربيين كبار، إلا أن ثقافته النقدية متجذرة في عمق التراث العربي القديم، لهذا نجده يشير كثيرا في مقدمات كتاباته، إلى جهود العرب القدامى وأهمية ما قدموه من طرح فكري نقدي ذي قيمة معرفية تفتخر بها الأمم العربية، فيقول :" لعل الذي يقرأ كتابات المفكرين العرب الكبار أمثال: الجاحظ، ابن جني، عبد القاهر الجرجاني، الفارابي، الكندي، أبي حيان التوحيدي، وابن سينا، وابن رشد، وابن خلدون، وابن خزم، وابن العربي، حتى لا نذكر غير هؤلاء المفكرين العماليق وعددهم أكبر بكثير يقتنع بعظمة هذا التراث المتنوع المتعدد والمتسامح الراقي معا. "[43] فهو يؤكد على وجود مرجعية نقدية قديمة، تحمل قيمة وثراء فكريا، يستحق المراجعة، ويحتاج إلى قراءة، ورؤية تبصرية واعية، تخرجه من زمن الماضي إلى زمن الحاضر، ليمتد إلى المستقبل، قصد ممارسة الفعل القرائي، وإحداث التفاعل بين المعارف، على اختلاف أزمنتها لا الانبهار فقط بما قدمه الغربيون لأن " مثل هذا السلوك العقيم العاق معا، سيدفع بنا إلى الانتحار الفكري، لأنه سيجعلنا قوما دون هوية، وأدباء دون أدب ونقاد دون نقد، بل قد يدفع بنا إلى اتخاذ الانقطاع المعرفي، سبيلا نسلكها، وفعلا نحمده حمدا، فإذا نحن لا نكون أكثر من صورة لغيرنا، فينا لا أكثر و لا أقل" [44]، بل أكثر من ذلك، إنه خراب فكري يهدم كيان الباحث العربي، ومن ثم الأمة العربية.

لهذا نجد "مرتاض" يدعو إلى مراجعة التراث، والتأكيد على الاستفادة منه بما يحمله من زخم معرفي، وكذا إقامة حوار منهجي بين القديم والحديث بغية تلاقح المعارف مع بعضها البعض، وعليه فإن " عبد الملك مرتاض " من النقاد العرب البارزين في طرح المزاوجة بين المنجز النقدي العربي و المنجز النقدي الغربي الحديث، بعد تمعن المفاهيم العربية القديمة ونقدها وتمحيصها ومقارنتها بنظيراتها الحديثة، ليلتقي الناقد ومجموعة الأصوات النقدية الحاملة مسلمات فكرية نقدية، قصد إنتاج رؤى نقدية عربية حديثة، تؤمن بالتطور والتغيير بعيدا عن التبعية والجمود و تمثل الآخر، سواء أكان ذلك التمثل انسياقا تاريخيا قديما أم حديثا غربيا. ومن ثمّ فإنّ إنتاج المفاهيم النقدية يكون نابعا من كياننا العربي، منطلقا من موروثنا و منفتحا في الوقت ذاته على الفكر الحديث، مع وعي تيارات التجديد والتحديث والتماشي مع العصرنة والاستمرارية، لا التأثر السلبي المنبهر بكل إنتاج غربي.

و يسعى "مرتاض" إلى ترويض المناهج الغربية بما يلائم خصوصية الإبداع العربي، فهو يرى أن فهم العمل الابداعي " يطلب المتذوق للبلاغيات والسميائيات معا حتى يذهب في فهم النص الى أبعد أغواره، فيتخصص في أعماق قراره. " [45].

إن فكرة فهم العمل الادبي تجعلنا نقف عند مصطلح القراءة النقدية، فهذه الأخيرة لم تعد ذلك الفعل الكلاسيكي البسيط، ولم تبق " قائمة على شرح الألفاظ، ولا على تخريج الإعراب، ولا على تلخيص المعنى المراد في النص المطروح للقراءة، وإنما اغتدت شبكة معقدة من المعطيات المتواشجة، المتداخلة، المتلازمة، المتعالقة، المتعانقة، المتفاعلة، المتناصة، التي يفي بعضها إلى بعض ويتوقف بعضها على بعضها الآخر في تلاحم، وتعانق، وتصادم، أو تلاطف وانسجام. " [46]

فلم تبق العناصر النحوية أو اللغوية او الدلالية هي أسس القراءة بقدر ما صارت تحتكم إلى النص كبنية متكاملة يعبر عن خبرة حياتية، يتطلب فهمه مجموعة من المهارات. ولذلك فإن الممارسة النقدية الحديثة " تستوجب ... على الناقد، أن يمتلك كشرط أساسي فكرا نقديا حداثيا، يسعفه على توليد لغة نقدية، ضمن لغته ومرجعيته المعرفية الأصيلة، حتى يستطيع حصر المصطلحات وتمثل المفاهيم بشكل أدق وأقرب إلى المجال المعرفي، الذي يتحرك في سياقه " [47]

وتتنوع روافد القراءة الحداثية والعلوم المفسرة النص الأدبي، ولذلك نجدها " ...تسخّر ... كل ما يمكن تسخيره من معرفة وفلسفة، وجمال وذوق وفن ولطف وتحس وتحفز وتطلع وتعمق، فتعومها في حقول الأدب الشاسعة، ثم لا ترضى بذلك حتى تعوج على التاريخ، بل فلسفة التاريخ وعلى مرجعية الخيال وحده. " [48]

كما أنها " تشكل جهازا فنيا ومعرفيا شديد التعقيد، مفتوح الآفاق داخليا وخارجيا، فإذا دخل، انساح وإذا خرج ساح، وإذا دخل غير وغاب وإذا خرج كان ذهابه بلا إياب. " [49]

وبهذا التطور والتحرر الفكري النقدي، لا يمكن للباحث العربي إلا أن يطلع على تيارات ومنجزات الحداثة الغربية مع التسلح بمعارف عربية قديمة، وهي من دون شك تزخر بزخم معرفي وثراء فكري، يشهد له الكثير من الباحثين، وذلك حتى لا يطغى على تحليل النصوص العربية ودراستها، الصبغة الأوروبية.

يقول " عبد الملك مرتاض" في هذا السياق: " إن حداثتنا لا تدعو إلى القطيعة المعرفية، ولا ترفض التراث أو تزدريه، بل تدعو إلى إحيائه، ولكن بقراءته بإجراءات جديدة، وأدوات من المنهج

الحداثي، لمحاولة ربط الحاضر بالماضي "[50] . فهو يؤكد على مكانة الفكر العربي القديم بما يحمله من قضايا نقدية، ترقى إلى مستوى النظريات، ليمثل بذلك البدرة التأسيسية التي عمل على زراعتها في المشهد النقدي العربي المعاصر، قصد إثمار وإنتاج فكر عربي يفتخر به وبجذوره، رغم الانفتاح على الفكر الغربي.

ويشير إلى أن ازدراء تراثنا العربي يعود إلى غياب الفعل القرائي الواعي ، لذلك ينبه الناقد العربي قائلا: "ولكننا ننبه فقط إلى انعدام قراءتنا له، أو أن قراءتنا إياه كثيرا ما تكون على عجل، أو غير احترافية وممارسة طويلة، قد نجعل بعضنا يعتقد على خطأ بأن تراثنا هذا ضحل من المعرفة العليا وفقير من نظريات العلم القادرة على مغالبة الزمن ومقارعة الدهر. "[51] فخروج الأنا الناقدة من براثن التبعية، والتخلف الفكري النابع عن الاستسلام للنتاج الغربي، لا يكون إلا بتمسك الناقد بمعارفه العربية الأصيلة، وعدم قطع الصلة بالماضي، علما أنه االرافد المعرفي الذي تغذى به العقل النقدي العربي منذ القدم، ليشكل ذلك النهج قاعدة انطلاق للباحث، لينفتح بعدها من خلال تلاقح الذوات الناقدة (الأنا،الآخر)(العربي، الغربي)، تلاقحا فعالا منتجا، ومضيفا للساحة المعرفية العربية التي تسعى إلى خلق هوية نقدية عربية معاصرة وأصيلة في الوقت نفسه.

ويؤيد العديد من النقاد موقف "عبد الملك مرتاض " من الحداثة، أمثال "عبد العزيز حمودة" الذي حاول من خلال كتابه " المرايا المقعرة " إثبات فكرة أن " النقد العربي والبلاغة العربية قدما نظرية نقدية، ونظرية لغوية، وربما لا تكون متكاملة في أي من المجالين، ولكنهما نظريتان لا تنقصهما العلمية التي كانت طعم الحداثيين العرب، والذين التهموه في انبهار وحماس واضحين، و أنهما يقدمان في جزئياتهما المتناثرة عبر أربعة قرون أو خمسة مكونات نظرية لغوية ونقدية كان من الممكن مع القليل من التزاوج بين فكر الآخر الحديث، و المعامل أن يطور إلى نظريتين كاملتين. [52]"

و كذلك "فاضل ثامر" الذي دعا إلى ضرورة تسلح الناقد بذخيرة معرفية تمكنه من وعي فكر الآخر دون الذوبان فيه، فيقول: "في تصوري أن الناقد العربي بحاجة إلى الخروج بموقف نقدي متوازن، يعبر عن حاجاتنا الثقافية والنقدية، ويكون حصيلة لتحليل أدبي وسوسيولوجي واسع للظواهر الأدبية من جهة، والواقع التاريخي الاجتماعي من جهة أخرى، وإلا فان الناقد سيكون عرضة للاستلاب والضياع والسقوط فريسة الجوانب السلبية في عملية" المثاقفة" و"الاتصال الثقافي." [53]"

وإذا كان عبد الملك مرتاض قد أشار إلى فكرة ترويض المناهج الغربية لتحليل النص العربي لما يمتاز به من خصوصية، فإن فاضل تامر يذهب المذهب نفسه، فيقول: "إننا لا نستطيع أن نفهم نصنا المكتوب بالعربية مهما كان جنسه، دون أن نكون أولا واقفين على تراثنا الأدبي والنقدي، وعارفين بأصول النص الأدبي القديم وخصائصه، هذه الأصول التي تستند إلى علوم اللغة والبلاغة، والعروض والقافية، إلى جانب هضم النصوص القديمة و تمثلها. " [54]

بمعنى أن الناقد العربي بحاجة ماسة إلى كسر عقدة الرجوع إلى التراث، واعتباره مخالفا لمفهوم الحداثة، فبه تنهض رؤى نقدية عربية جديدة، وذلك عن طريق مزاوجة الموروث العربي بالعلم الحداثي، حتى لا تبقى النظرية بعيدة عن متطورات المنجز الحداثي من جهة، وتبقى الآلية النقدية أصيلة موافقة محتوى الكيان والقالب النصي العربي، من جهة أخرى، إذ لا يمكننا القول من أن " أهمية الممارسة النقدية وخطورتها وفاعليتها (...)، لا تكمن في مدى جدتها وجديتها وعمقها فحسب، بل تكمن إضافة إلى ذلك في مدى استجابتها لحركة الواقع المعيش وتلبية حاجاته الأساسية المستجدة المتغيرة، فالثقافة المنشودة هي تلك التي تسهم في حل الإشكاليات الحضارية للأمة. "[55]

ويتضح موقف "عبد الملك مرتاض" من الحداثة أكثر من خلال تحدثه عن النقد القديم في العصر الحديث، بوضع مجموعة من الآراء التي تباينت بين مؤيد ومعارض، انطلاقا من الفكر العربي، حيث رأى أن الصراع بين القديم والحديث، احتدم في الساحة النقدية العربية بين كل من "طه حسين" و"مصطفى صادق الرافعي "، فطه حسين دافع عن الكتابة الحداثية، في حين أن" الرافعي" كان مرتبطا بالجذور الأصيلة وقد قال في ذلك:" وقد بانت تلك المعركة الحامية عن تصورين مختلفين لهذه الإشكالية : تصور تقليدي يؤمن بالماضي أساسا ولا يرى عظمة الأشياء ماثلة إلا فيه، فهو يتعلق به ، وهو يحرص على احترام أصوله وتقاليده، وتصور آخر جديد، يرى أن الماضي ليس منطلقا لتطلع نحو أفاق واسعة للإبداع والابتكار والتجديد، بل الثورة على كل ما هو غير لائق بالعصر معرفيا ومنهجيا." [56]

كما يشير إلى ما شهده الفكر الغربي من صراع فكري بين القديم والحديث ولا سيما ما كان بين كل من " رولان بارت " و"ريمون بيكار"، ليختتم بعدها " عبد الملك مرتاض" موقفه النقدي الذي كان توفيقيا قائلا: "يفيد من النظريات الغربية القائم الكثير منها على العلم، كما يفيد من بعض التراثيات، فيهضم هذه وتلك، من ثمة تأتي محاولة عجن هذه مع تلك عجنا مكينا، ثم بعد ذلك تأتي المحاولة الأخيرة، متمثلة في تناول النص برؤية مستقلة مستقبلية. " [57] مؤكدا بذلك على أهمية التراث، في صنع نقد جديد، أو تراث بلمسات فكرية غربية حديثة، إذ تبلور فكرة أهمية التراث

مفهوم التحول والتغيير، من خلال نقل المفاهيم التراثية إلى الساحة النقدية الحديثة، بعد تفاعل بعضهما ببعض، قصد إحداث تطوير لتلك النظريات التراثية، ومطاوعتها في مقاربة النص الإبداعي وما يخدم تقنياتها وآلياتها في الكتابة.

وبهذا سينحو التراث منحى التجديد والتحول، فقد كان عبد الملك مرتاض في مرحلة التأسيس والتجريب "يمهد لإرساء معالم منهج جديد، يحتكم إلى التأويل المحايث للظاهرة النصية مجردة من سياقاتها الخارجية، برؤية بنيوية أسلوبية لم تسلم، من بعض الملامح التقليدية، مثلما تعثرت على عتبة الفصل الأول بين النص ومضمونه، لينجر عن ذلك تجزيء المنهج ، وإخفاقه في احتواء الظاهرة النصية مجملة ."[58]

وينتصر "عبد الملك مرتاض" للجديد خاصة إذا لم يتعارض مع القديم، فيقول: " لكننا نؤمن بأن النصر أبدا للجديد ولا سيما إذا كان جديدا لا يرفض القديم جملة وتفصيلا " [59]. والغاية الأساسية من تبنيه مواقف نقدية حديثة هي إثبات فكرة قابلية النص التراثي للدراسة والتحليل وفق مناهج حداثية، ويتضح ذلك في قوله: " وقد أردنا من وراء هذا المسعى، أن نبرهن كيف أن أي منهج حداثي أو ما يمكن افتراض كونه كذلك، على الأقل لا يعجزه أن يتناول نصا غير حداثي (....) وينتهي فيه بالأدوات التحليلية الجديدة إلى ما يريد الانتهاء إليه من نتائج." [60]

فهو كثيرا ما كان ينقب في متون تلك النظريات، والمدونات النقدية، وحتى في فعله التنظيري للنظريات الحديثة عن بعض القضايا التي جاءت بها الحداثة الغربية، من ذلك: المرجع عند عبد القاهر الجرجاني، العلامة عند الجاحظ، السمة والعلامة عند الجرجاني والحيز الأدبي عند الجاحظ والأصفهاني، والسرقات الأدبية التي جاءت تضمن مباحث مصطلح التناص.

وإذا كان السؤال الذي أرّق العالم العربي، هو فيم تكمن الهوية العربية؟ فإن الجواب يكون انطلاقا من ماضينا وتراثنا. لأنها هي الوحيدة التي تساعدنا في " اكتشاف الأنا وتأصيلها وتحريرها من سيطرة الغازية (...) وتساعد أيضا على مواجهة التحديات الحضارية والغزوات الثقافية التي نحن ضحية لها في هذا القرن وتنقلنا من وضع التحصيل والنقل إلى وضع النقل والخلق والابتكار " [61]

فعلى الناقد الخروج بموقف يمثل ثقافته، وحضارته، حتى لا يسقط في فخ الفكر الغربي، ويصبح فريسته، ويكون عرضة للضياع والاستلاب، وبذلك فإن الاتصال الثقافي الواعي، وحده من يؤمّن للناقد مكانته وهويته.

وبناء على ما سبق، فإن النقد، أينما كان، وكيفما كان، هو كائن حي ينمو ويكبر عبر مراحل، وفي تسلسل وتطور مستمرين، يتغذى من التراكمات المعرفية التي يكتسبها من مرحلة إلى أخرى، فهو علم " يعيش على حساب غيره من العلوم ، فإن أراد تمحيص الأساليب اعتمد على (علم البلاغة)، وإن عمد على استظهار هذه الروح احتاج إلى (علم الجمال)، و أما اذا شغل نفسه بمكنون اللاشعور ودلالته على الشاعر مثلا، احتاج إلى علم النفس، و هكذا دواليك، وهذا ما وسّع ميدان النقد، فلم يعد قصرا على البلاغة كما كان في القديم " [62] .وإذا كان النقد كذلك، فإن الناقد أيضا يحتاج إلى الجديد، والانفتاح على العلوم الأخرى، حتى تنمو ملكته النقدية، ليصبح أكثر نضجا ووعيا وتمرسا في سبر أغوار النص. وبهذا يواكب تطورات النص الإبداعي، من خلال حفاظه على التراث البلاغي والنقدي، والانفتاح على الإنتاج الغربي، حيث إن " امتلاك التراث اللغوي والبلاغي والنقدي العربي لمقومات نظرية عربية كان يمكن أن تكون كما قال العقاد في المرحلة الأخيرة من حياته ((الهوية الواقية))، القادرة على حماية الثقافة العربية من أن تؤول إلى الفناء كفناء المغلوب في الغالب " [63] فالتراث يفرض وجود الإنسان وكينونته ويحميه من عوامل الفناء.

و من هذا المفهوم النقدي الحداثي دخل " عبد الملك مرتاض " إلى مرحلة جديدة في مساره النقدي، متمثلة في **تهجين المناهج**، أو ما يعرف **بالقراءة المركبة**، إيمانا منه من أن " تهجين أي منهج ضروري لتكتمل أدواته، وليصبح أقدر على العطاء والرؤية " [64]. فهو يبحث عن القراءة الاحترافية الإنتاجية، من خلال مزاوجة منهجين نقديين، قد يكون بين التراث البلاغي ومنهج غربي حديث، أو منهجين حديثين في تلاقح وتفاعل، بغية الوصول إلى درجة من القراءة المتكاملة لنص الإبداعي، خاصة أن هذا الأخير خطاب زئبقي يصعب المسك أو الإلمام به. ومن هنا تصير القراءة الاحترافية " قراءة مركبة معقدة ...تنهض على جملة من الإجراءات التجريبية والاستطلاعية والاستنتاجية جميعا. " [65] وهذا الطرح يعزز فكرة رفض عبد المالك مرتاض لما يعرف بتقديس المنهج، وإنما السعي إلى الترويض والجمع والتفاعل خاصة إذا كان النص التراثي يستجيب لذلك.

فمادام النّص الإبداعي يطرح بصورته الكاملة، فعلى النقد أن يستخدم كل أدواته الإجرائية في الكشف عن خبايا هذا النص. حيث إن هذا النوع من القراءة – المركبة – يسهم في توسيع أفق القارئ، ويمنحه حق بناء آليات وإجراءات تطبيقية خاصة، يرى من خلالها نجاعتها وإسهامها في الكشف عن أسرار النص الإبداعي، بما يحمله من معانٍ و دلالات، انطلاقا من فكرة الحوار الابستمولوجي بين المناهج النقدية وتركيبها بما يخدم النص.

و جمعا لمواقف عبد الملك مرتاض ورؤاه حول التراث ولنص الإبداعي والنظريات والمناهج الغربية ، يمكن أن نجعل – مرتاض- على حد تعبير "يوسف وغليسي" " ناقدا غربي المنهج، عربي الطريقة، حداثي المادة، تراثي الروح. "[66]

ومع كل هذا يبقى النقد العربي يفتقر للهوية النقدية الخاصة، إذ لم يخرج رغم كل هذا الاجتهاد من عباءة المنهج الغربي فصُنع الهوية كما يقول "عبد الرحمن بن إبراهيم " ليس في إنتاج الشبيه وإنما في إنتاج المختلف وليس في الواحد الماثل بل في الكثير المتنوع فالهوية إبداع دائم، و تغلغل مستمر في فضاء التساؤلات والبحث الفضاء الذي يفتحه السؤال من أنا ؟ والطبيعي أن الآخر ليس الانتماء القومي، ليس ((الوطني)) أو ((التراث))، أو الهوية الجماعية أو الإيديولوجية)) و إنما هو الإنسان الفرد، الذات، الوعي الإنساني الشخصي الذي يواجه الكون ويحاول أن يكتبه، الأنا هنا هو الآخر، كلاهما مفتوح على قرينه، متجه إليه، في لقاء دائم لكي يزداد وجوده امتلاء، و لكي تكون إبداعيته أكثر عمقا وشمولا و إنسانية. "[67] وهنا وجب على الناقد العربي أن ينتج ويقدّم بديلا مميّزا عمّا يسوّق له الغربيون ، وأن يكثر ذلك النتاج لتتبلور في ظله خصوصيات الثقافة العربية الإسلامية وكذا خصوصيات النص الإبداعي العربي الإسلامي .

خاتمة :

وفي ختام هذا البحث يمكننا القول أن الناقد "عبد الملك مرتاض " قد اكتسح العالم التراثي بإدخاله الحداثة على عوالمه المعرفية والفكرية، قصد محاولة إنتاج نظرية عربية ذات خصوصية وهوية، دون العيش تحت سلطة الخضوع والثبات، بل الانفتاح والتطور. وبذلك عدت نظريته النقدية أنموذجا حيّا لمجموع الأفكار التي ينطلق منها الباحثون و المفكرون، فقد رسم من خلالها صورة جميلة للنقد العربي، - بعد أن همشت، وغيبت من الساحة النقدية العربية – مع قدرته على مسايرة التطور، الذي شهده الفكر النقدي الحديث، ومنه تحفيز الباحثين على الاجتهاد في التأصيل لبناء منظومة مفاهيمية عربية، ترتكز عليها الدراسات العربية. كما أن استدراجهم إلى الفعل التأسيسي يعد غيرة على الأصالة، ودعوة متأنية ترتكز على القراءة الاحترافية التي تجعل النص يستوعب كل النظريات وكل المناهج مع المحافظة على خصوصياته العربية الإسلامية. ولن يتحقق ذلك أيضا إلا بجعل الماضي نقطة مضيئة لمستقبل منير.

لقد تميز مسار "**عبد الملك مرتاض**" النقدي، بالتطور المستمر والمتسلسل في الأسس العلمية والابستمولوجية، من حيث الإجراء والمفهوم، فلقد أعطى للمقاربات النقدية بعدا معرفيا جديدا

وخاصا، محافظا في ذلك على أصالته وعروبته، وذلك بعد جهد استكشافي تأسيسي يتأثث باستمرار.

الهوامش :

1. مخلوف عامر: متابعات في الثقافة والأدب، اتحاد كتاب ط، 1الجزائر، 2002 ،ص 82
2. مسلم حسن حسين، الخطاب النقدي العربي المعاصر،اشكالية المنهج و النظرية ،مجلة اداب البصرة العدد 57 سنة 2011 ص1
3. فاضل ثامر: اللغة الثانية في اشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط،1 الدار البيضاء، بيروت، 1994، ص 230
4. عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة المرايا المقعرة نحو نظرية عربية، مطابع الكويت، 2010، ص187
5. فاضل ثامر: اللغة الثانية في اشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ، ص 243

6. أحمد شهاب: تحليل الخطاب النقدي المغامر في مغامرة جمالية النص الأدبي دراسة في نقد النقد، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ،ط1اربد ،2015 ، ص 10
7. ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر بيروت، دط دت ج2 مادة ح د ث ، ص 131
8. الخليل ابن أحمد الفراهيدي: معجم العين، تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، ج3 ، دت، مادة ح دث، ص 177
9. أحمد مختار : معجم اللغة العربية ، عالم الكتب، القاهرة ط1 ،2008. م1 ،ص 454
10. ادوارد الخراط: قراءة في ملامح الحداثة عند الشاعرين من السبعينات ، مجلة فصول ،م 4،ع 4، 1984 ، ص8
11. محمد عابد الجابري: التراث و الحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية،ط1 بيروت لبنان، 1999، ص 15
12. موسى إبراهيم: منصور أبودقة، متاهات الحداثة بين الاتباع والابتداع، مجلة الجامعة الاسلامية، غزة، م 13،ع1، 2005 ، ص 03
13. نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة و آليات التأويل، المركز الثقافي العربي ،ط3 الدار البيضاء ، بيروت أيلول 1994 ، ص 51
14. أدونيس: المحيط الأسود، ، دار الساقي،ط1 بيروت، 2005 ، ص 49
15. المرجع نفسه :ص 49
16. سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، الدار البيضاء، ص 126
17. نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات التأويل، ص 51
18. 18 -سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي، ص 125
19. نادية بوذراع : الحداثة الشعرية مقاربة في الظروف والأسباب، مجلة مقاربات، الجلفة ،م 4،ع1 ،2016 ،ص 323
20. ابراهيم القهوايجي: تأملات في الحداثة الأدبية، مجلة أفق ،المغرب، 1994ع9، السنة 3 ، ص 66
21. فؤاد أبو منصر : النقد البنيوي الحديث بين أوروبا و لبنان ، دار الجيل،ط1 بيروت، 1985 ، ص 82
22. نصر حامد أبو زيد: النص السلطة الحقيقة، إدارة المعرفة وإدارة الهيمنة، ط1المركز الثقافي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب 2000 ص 13
23. عبد الملك مرتاض: مدخل في قراءة الحداثة ،البيان الكويتية، ع 7_ 3 ، ديسمبر 1996 ص 06
24. المرجع نفسه: ص 06
25. المرجع نفسه: ص 06
26. المرجع نفسه: ص 07

27. المرجع نفسه: ص 08
28. المرجع نفسه :ص 08
29. المرجع نفسه :ص 13
30. عبد الملك مرتاض: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ص 10
31. المرجع نفسه: ص 10
32. مزاري شارف: جمالية الايقاع في القرآن، رسالة دكتوراه(مخطوط)جامعة وهران 2004 ص 21
33. عبد الملك مرتاض: التحليل السيميائي للخطاب الشعري، دار الكتاب العربي ،الجزائر 2001 ص 07
34. ناصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة وآليات التأويل،الهيئة العامة لقصور الثقافة، دط،مصر،1992 ص 05
35. عبد العزيز: حمودة المرايا المقعرة، ص 31
36. عبد الملك مرتاض: دراسة سيمائية تفكيكة لقصيدة أين ليلاي، ص 18- 19
37. عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007 ،ص 188
38. المرجع نفسه: ص 159
39. عبد الملك مرتاض: مائة قضية وقضية: مقالات ودراسات تعالج قضايا فكرية ونقدية متنوعة، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 166
40. المرجع نفسه: ص 117
41. عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة، ط2، الجزائر، 2010ص 188
42. المرجع نفسه: ص 186
43. المرجع نفسه: ص 196
44. عبد الملك مرتاض: دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة" اين ليلاي" ص 10
45. عبد الملك مرتاض: قضايا الشعريات متابعة وتحليل لأهم قضايا الشعر المعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة، ص 243
46. عبد الملك مرتاض: تقاليد القراءة و أصولها في الأدب العربي، ع4،سبتمبر ،1995 ص 62
47. عبد الرحمن ابن ابراهيم : الحداثة و التجريب في المسرح ، افريقيا الشرق للنشر ،دط ،المغرب 2010، ص 94
48. عبد الملك مرتاض: تقاليد القراءة و أصولها في الأدب العربي، ص 62
49. المرجع نفسه: ص 62
50. المرجع نفسه: ص 62
51. عبد الملك مرتاض: مائة قضية وقضية، ص 180

52. المرجع نفسه: ص 180
53. عبد العزيز: حمودة المرايا المقعرة، ص 182
54. المرجع نفسه: ص 186
55. فاضل ثامر: اللغة الثانية في اشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث ،ص 60
56. جودت الركابي: الحداثة والبنيوية في معرفة النص الأدبي أفاق الثقافة والتراث، ع ،10 ديسمبر 1955 ص 14
57. شكري عزيز الماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد البنوية، النقد الأسطوري مورفولوجيا ، ما بعد البنيوية المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1 ،بيروت، 1997، ص 179 -180
58. عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 58
59. المرجع نفسه: ص 58
60. يوسف وغليسي : الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، منشورات إبداع ثقافية، الجزائر، 2002، ص 63
61. عبد الملك مرتاض : ألف ليلة و ليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993ص 11
62. عبد الملك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية ، ديوان المطبوعات، الجزائر ،1982 ، ص 06
63. عبد الملك مرتاض ،تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995 ص 18
64. عبد الملك مرتاض: في نظرية النقد، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2005، ص25
65. حلمي مرزوق النقد والدراسة الأدبية، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، بيروت ،1982 ص 69
66. يوسف وغليسي، الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، ص65
67. عبد الرحمن ابن ابراهيم :الحداثة والتجريب في المسرح، افريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014، ص 97 .

قائمة المصادروالمراجع :

- ابراهيم القهوايجي: تأملات في الحداثة الأدبية، مجلة أفق المغرب، 1994 السنة 3 ، ع 9.
- ابن منظور : لسان العرب ، دار صادر بيروت، دط دت ج2 مادة ح د ث.
- أحمد شهاب: تحليل الخطاب النقدي المغامر في مغامرة جمالية النص الأدبي دراسة في نقد النقد، عالم الكتب الحديث للنشر و التوزيع ،ط1اربد ،2015 .
- أحمد مختار : معجم اللغة العربية ، عالم الكتب، القاهرة ط1 ،2008. م1.

- ادوارد الخراط: قراءة في ملامح الحداثة عند الشاعرين من السبعينات ، مجلة فصول ع 4، 1984 م 4.
- أدونيس: المحيط الأسود، دار الساقي،ط1 ،بيروت، 2005 .
- جودت الركابي: الحداثة والبنيوية في معرفة النص الأدبي أفاق الثقافة والتراث، ع ،10 ديسمبر 1955.
- حلمي مرزوق النقد والدراسة الأدبية، دار النهضة العربية لطباعة والنشر، بيروت ،1982 .
- الخليل ابن أحمد الفراهيدي: معجم العين، تحقيق مهدي المخزومي وابراهيم السامرائي، ج3 ، دت، مادة ح دث.
- سعيد يقطين: الرواية والتراث السردي من أجل وعي جديد بالتراث، المركز الثقافي العربي، ط1، بيروت، الدار البيضاء.
- شكري عزيز الماضي: من إشكاليات النقد العربي الجديد البنوية، النقد الأسطوري مورفولوجيا ، ما بعد البنيوية المؤسسة العربية للدراسات و النشر، ط1 ،بيروت، 1997 .
- عبد الرحمن ابن ابراهيم : الحداثة و التجريب في المسرح، افريقيا الشرق للنشر دط المغرب ،2014 .
- عبد العزيز حمودة : المرايا المقعرة نحو نظرية عربية، مطابع الكويت، 2010 .
- عبد الملك مرتاض: الألغاز الشعبية الجزائرية ، ديوان المطبوعات، الجزائر ،1982 .
- ألف ليلة و ليلة تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1993.
- تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1995.
- تقاليد القراءة و أصولها في الأدب العربي، ع4،سبتمبر ،1995.
- مدخل في قراءة الحداثة ،البيان الكويتية، ع 7_ 3 ، ديسمبر 1996 .
- التحليل السيميائي للخطاب الشعري دار الكتاب العربي ،الجزائر2001.
- في نظرية النقد متابعة لأهم المدارس النقدية المعاصرة ورصد لنظرياتها، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر..2005.
- نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007.
- نظرية النص الأدبي، دار هومة، ط2، الجزائر 2010.
- دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- مائة قضية وقضية: مقالات ودراسات تعالج قضايا فكرية ونقدية متنوعة، دار هومة للنشر والتوزيع، الجزائر.
- قضايا الشعريات متابعة وتحليل لأهم قضايا الشعر المعاصر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة.

- فاضل ثامر: اللغة الثانية في اشكالية المنهج والنظرية والمصطلح في الخطاب النقدي العربي الحديث، المركز الثقافي العربي، ط،1 الدار البيضاء، بيروت، 1994 .
- فؤاد أبو منصر : النقد البنيوي الحديث بين أوروبا و لبنان ، ط1، دار الجيل، بيروت، 1985 .
- محمد عابد الجابري: التراث و الحداثة دراسات ومناقشات، مركز دراسات الوحدة العربية، ، ط1، بيروت لبنان 1999.
- مخلوف عامر: متابعات في الثقافة والأدب، اتحاد كتاب ط، 1الجزائر، 2002 .
- مزاري شارف: جمالية الايقاع في القرآن، رسالة دكتوراه(مخطوط)جامعة وهران 2004.
- مسلم حسن حسين، الخطاب النقدي العربي المعاصر،اشكالية المنهج و النظرية ،مجلة اداب البصرة العدد 57 سنة 2011.
- موسى إبراهيم: منصور أبودقة، متاهات الحداثة بين الاتباع والابتداع، مجلة الجامعة الاسلامية، غزة، ع1، 2005 م13.
- نادية بوذراع : الحداثة الشعرية مقاربة في الظروف والأسباب، مجلة مقاربات، الجلفة ،ع1 2016 م 4 .
- نصر حامد أبو زيد: إشكالية القراءة و آليات التأويل، المركز الثقافي العربي ،ط3 الدار البيضاء ، بيروت أيلول 1994 .
- نصر حامد أبو زيد: النص السلطة الحقيقة، إدارة المعرفة وإدارة الهيمنة، ط1المركز الثقافي، بيروت، لبنان، الدار البيضاء، المغرب 2000 .
- يوسف وغليسي : الخطاب النقدي عند عبد الملك مرتاض، منشورات إبداع ثقافية، الجزائر، 2002.